

التوجيه والإرشاد النفسي عبر الثقافات

عبد القادر خياطي *

كثير من الافتراضات الأساسية في التوجيه والإرشاد النفسي تعكس المحتوى (المحيط) الاجتماعي والاقتصادي والسياسي للثقافات الغربية، كما تعكس أيضاً التطبيقات العامة لهذه الافتراضات في الثقافات غير الغربية (Pederson 1976-1978). إن تحدي عالمية علم النفس الغربي للأسس والمفاهيم لا يعني إنكار الطابع العلمي لعلم النفس (Dias - Guerreiro 1977) بقدر ما يعني الاعتراف بافتراضات بديلة من منظور ثقافي آخر.

لقد أفادت دراسات (Bochner 1982) حول التفاعل عبر الثقافات مثلاً بعضاً من السلوكيات المحدودة التي يقوم بها الجاهل اجتماعياً بطريقة غير ناجحة، نذكر من بين هذه السلوكيات عدم التلاؤم في التعبير عن المواقف، والشعور والانفعالات عند اتخاذ الوضعية الأكثر ملاءمة في فهم نظرات نماذج الأشخاص الذين يتفاعلون معه في القيام ببعض السلوكيات الرتيبة (الروتينية) مثل: التحية والتوديع والاستئذان وروح العبادة والطلب والرفض للأشياء، وسوء التكيف في الجزم والتأكيد الذاتي. إن كل عناصر التفاعل الاجتماعي هذه ثبت أنها تتغير عبر الثقافات (Frun Ham 1979)، Hall and Beil-Warner (1978)، (Leff 1977). كما أكد Bochner في موضع آخر أن الأشخاص حديثي العهد بثقافة ما والذين تعودوا القوانين ورتابة (روتينية) السلوكيات التي تتعلق بالاجتماع، يكونون عندئذ - على الأقل مبدئياً - غير ماهرين اجتماعياً في بيئتهم الجديدة. وتضم هذه الفئة الطلبة الأجانب والأساتذة الزائرين ورجال الأعمال

* دكتوراه في علم النفس التربوي من معهد رنسلير المتعدد التقنيات، الولايات المتحدة الأمريكية، سنة ١٩٨٧.

والدبلوماسيين. حيث إن كثيراً من هؤلاء الناس يميلون لأن يكونوا ماهرين في المظهر، ممتازين في التفاعل الشفهي وغير الشفهي في مجتمعاتهم الخاصة، وإن لم يتلاءموا مع الثقافة الجديدة خاصة في مواقف الإحباط والإرباك (P. Pederson, 1996)، مثال ذلك أن الطلبة المسلمين كغيرهم من الطلبة الأجانب في أول عهد لهم بالولايات المتحدة، يعانون من "صدمة ثقافية" Culture Shock حادة.

وقد أكد (1977 Sand N.D Berg) في بحثه التقييمي حول الإرشاد عبر الثقافات أن لكل ثقافة أسلوبها الخاص في التعامل مع مشاكل الأفراد وأن عملية الإرشاد النفسي المنظمة هي أسلوب غربي للتغلب على مثل هذه المشكلات والمصاعب. وتعتقد كل من (Sue D. and Sue. D., 1977)، أن الإرشاد النفسي يضم عدة قيم غربية ذلك أن الإدراك الثقافي لطالب المساعدة يختلف من حيث القيم والخصائص عن العادات غير الغربية. ونظراً للخلافات والفروق الاجتماعية والثقافية الكثيرة بين الثقافات الغربية وغير الغربية، اعتقد كل من (Ward. L. E and Kinzie. J. أن الإرشاد قد لا يبدو - خاصة بالنسبة لغير الغربيين - أنه عملية ملائمة ومساعدة في حل المشكلات. كذلك فقد كتب كل من (Alexandar, et al., 1976 والآخرين) أنه على المرشدين النفسيين الأمريكيين - خلال المقرر التعليمي حول العمل العلاجي - ألا يحاولوا "أمركة" Americanize عملائهم من الطلبة الأجانب، ويشمل هذا الأفراد غير الغربيين. أو أنهم ينظرون إلى المقاربة الغربية للصحة النفسية على أنها الطريقة الوحيدة الممكنة. كذلك فإن (Tin Loy, 1978) كتب يقول إن العلاقات العلاجية التي تتميز بأنها شفعية؛ والأفراد المياليين إلى التأكد والجرم والمرشدين الموجهين؛ كل ذلك يجسد القيم الغربية وقد لا يجعلها جذابة لكثير من الأفراد غير الغربيين. وبناء على هذه الفروق في النظام القيمي، فإن كثيراً من المرشدين الأمريكيين قد يصفون عملائهم الأجانب بأنهم عدائيون خجولون سلبيون (غير فعالين أو صرحاء). أو مكبوتون (Sue D. and Sue. D., 1977).

في هذا الصدد ومن بين الدراسات التي اهتمت ببحث فعالية الإرشاد والتوجيه في البلدان النامية وجد المرشدون فيها أن بعضاً من مناهج الإرشاد لم تكن ملائمة في توجيه وإرشاد الطلبة في مجتمعاتهم. على سبيل المثال في الدراستين اللتين قام بهما كل من (Olooye, 1974) و (Pully Bank, 1974)، وُجد أن الطلبة كانوا خجولين ولم يكونوا معودين على حل مشكلاتهم وأخذ قراراتهم بأنفسهم، الشيء الذي جعل طريقة Rogers المبنية على مقارنة التمرکز حول العميل Client-Central Approach غير ملائمة في مساعدة أولئك

الطلبة، لأن الطلبة كانوا يتوقعون من المرشد أن يوجههم نحو ما يجب أن يفعلوه وكيفية القيام به وأن يساعدهم في اكتشاف قدراتهم الخاصة (1962 Rogers، 1974 Pully Bank، أولي 1974)، وطبقاً لـ Baderson والآخرين (1976) فإن الحساسية الثقافية والوعي وفهم الخلفية الثقافية للعميل، هي عوامل حيوية في العلاقة الإرشادية البيثقافية عند الأخذ بعين الاعتبار الدراسات السابقة التي بينت عدم الملاءمة في تطبيق مثل هذا النظام للتوجيه والإرشاد في ثقافة معينة على أساس من ثقافة مغايرة. إننا نعتبر أننا لا نصل فقط إلى النتائج المرجوة، ولكن قد تكون هناك بعض الانعكاسات الجانبية الخطيرة في استعمال مثل هذه الطرق. وفي التاريخ التربوي المعاصر نجد أن عدداً من الدول العربية والإسلامية تبنت واستخدمت نظام التوجيه والإرشاد الغربي في المدارس ومراكز التدريب ومراكز الإرشاد. إن النموذج الأمريكي (والغربي بصفة عامة) للتوجيه والإرشاد يعتبر متطوراً جداً في تقنياته ومتطوراً جداً في تصوراته وأن المرشدين الأمريكيين هم الطليعة في هذا الميدان. ولكن، أن نعتمد النموذج الأمريكي اعتماداً أعمى - كما هو الحال في المجتمعات النامية، خاصة الدول العربية والإسلامية منها - فإن هذا غير ملائم، وذلك لعدة عوامل لا يستطيع فيها النموذج الأمريكي أو الغربي وحده تحقيق النتائج المنتظرة. ويمكن إجمال هذه العوامل فيما يأتي:

١. ثبت عملياً ونظرياً (مفاهيمياً) خطأ اعتماد وإقرار نموذج توجيه وإرشاد مجتمع معين في مجتمع آخر عنده اعتقاده الخاص ونظام حياته المختلف وأخلاقه المغايرة. لأن التوجيه والإرشاد لا يمكن تطبيقهما بعيداً عن قيم المجتمع كما يؤكد ذلك Bingham. W.C (1976). إن الإرشاد والتوجيه المطبق في الولايات المتحدة الأمريكية مثلاً يطبق في إطار فصل الدولة عن الكنيسة ويصنف إلى نوعين: حسب Pallove and Lee (1969).

أ. التوجيه الديني ويطبق في البيت والكنيسة.

ب. التوجيه العلماني ويطبق في المدارس ومراكز التدريب. بينما في المجتمع الإسلامي فإن الأمور الدينية والدنيوية هما بعدان في نظام واحد لعبادة الله سبحانه وتعالى. إن الإسلام دين ودولة، شريعة ونظام حياة، إنه عبادة ومعاملة، إنه نظام إيماني اجتماعي اقتصادي متكامل. ومن هنا يكون التوجيه والإرشاد في المجتمع الإسلامي في المجالات الدينية والدنيوية مبنياً على التعاليم الإسلامية طالما ليس هناك فصل بين ما هو ديني وما هو غير ديني وأن الإنسان مسئول عن كل أفعاله وأنه يُجزى عنها إن خيراً فخير وإن شراً فشر.

٢. إن التوجيه والإرشاد في الولايات المتحدة الأمريكية وفي الغرب يقدم لأفراد أو جماعات يعيشون في مجتمع يؤمن بالريح الفردي والاستقلالية الفردية والحرية الفردية، والانغماس في الشهوات والرغبات. مجتمع لا تتبوأ فيه المرأة أي منزلة خاصة ومحترمة. حيث لا يوجد إلا قليل من الاهتمام بحماية الروابط العائلية واحترام الزواج والشعور الإنساني والحب والرحمة بين الناس. ذلك لأن الحياة في المجتمع الغربي هي أشبه ما تكون ميكانيكية، كل فرد فيها مسئول عن نفسه وله الحرية في أن يفعل ما يشاء ما دام لا يضر بالآخرين.

وقد أخذ بالنقد Hamid R. Abdul-Fattah (1982) هذا النوع من المجتمع وذكر في هذا الخصوص أنه:

"ليس الواحد في حاجة الآن لأن يأتي ويرى عن قرب أن هذه الثقافة المادية غير الدينية تسهم في إحداث كل أنواع الانحرافات السلوكية والأمراض: التفكك الأسري واللواط والاتصال الجنسي غير الشرعي، والإدمان على الكحول، والمخدرات، والعنف. إلخ.... ويضيف حامد في موضع آخر أنه من المنظور الإسلامي، نجد أن العديد من المجتمعات التي قدّمت إلينا على أنها "دول متقدمة" هي في الحقيقة غير ناضجة من حيث النضج النفسي والروحي Psychospiritual.

ذلك أن التوجيه والإرشاد في المجتمع الإسلامي يقدم لأفراد وجماعات يعيشون في مجتمع يقدر العائلة، مجتمع يحترم المرأة ويشجع على الرحمة والأخوة، والتكافل بين الناس، مجتمع يدعو إلى خشية الله، يدعو إلى مساعدة الضعيف، مجتمع يدعو إلى مكارم الأخلاق والابتعاد عن المنكر وعمل السوء، كل فرد فيه مسئول عن ترقية نفسه والمجتمع الذي يعيش فيه. كل فرد فيه مسئول عن تطهير نفسه والمجتمع من حوله من الفساد والشور قدر ما استطاع. Zidane (1975). وهذا ما يمكن أن نستشفه من حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم الذي يحث فيه المسلمين على اهتمام بعضهم ببعض، حيث يقول ﷺ: "من لم يهتم بأمر المسلمين فليس منهم" صحيح مسلم. وقد أكد ذلك رسول الله ﷺ، في حديث آخر بقوله: "من رأى منكم منكراً فليغيره بيده فإن لم يستطع فليسلطه فإن لم يستطع فليقلبه. وذلك أضعف الإيمان" صحيح مسلم.

وإذا كان كل مسلم له الحق في أن يفعل ما يشاء حيث إنه مسئول عن أفعاله، فإنه ليس له الحق في أن ينغمس في المنكرات والمعاصي وأعمال السوء جهاراً نهاراً، فإذا ما فعل ذلك سراً فهذا بينه وبين خالقه. أما إذا أصر على القيام بها علانية فإنه يوقف

Hacker A. (1983) في دراسته أن أكثر من ٢٦,٨٣٢ من الأمريكيين أقدموا على الانتحار خلال السنة ١٩٨٦، وأن ١٠٪ تقريباً من وفيات الشباب ما بين ١٣ و١٩ سنة ترجع إلى الانتحار. وأن هذه النسبة ارتفعت إلى ١٤٪ بالنسبة للشباب الذين تتراوح أعمارهم ما بين ٢٠ إلى ٢٤ سنة.

وفي سنة ١٩٧٧ سجّل مليون ومائتا ألف من الذين خالفوا القانون ومثلوا أمام المحاكم وأن ثلاثة أضعاف هذا العدد كانت لهم مشاكل مع الشرطة، وأن شاباً واحداً من كل ثلاثة قد خالف قانون المرور وكانت له قضية في العدالة (Lee and Klopfer 1978).

أيضاً تذكر الإحصائيات أن من أخطر المشكلات التي تواجه المجتمع الأمريكي حالات الحمل عند الطالبات خارج إطار الزواج. فقد وجد (McKenry) والآخرين أن ١٠٪ من المراهقات كن حاملات من غير زواج وأن ثلث الإجهاض القانوني أجري لمراهقات. كذلك فإن الأمراض الجنسية انتشرت هي الأخرى بين الشباب في الثانويات بنسبة أكبر في سنة 74 عما كانت عليه في 56 وذلك برغم تحسن الممارسات الصحية. وحسب Wynne (1981)، فإن عدد حالات الأمراض التناسلية زادت ١٠٠٪. أيضاً هناك مشكلة انتشار المخدرات وتعاطي الخمر بين تلاميذ الثانويات والجامعات. كما أن نسبة تعاطي الخمر ارتفعت من ٥٢٪ سنة 56 إلى ٧٣٪ سنة 73 و٨٣٪ سنة 77، وكذلك الحال بالنسبة لتعاطي المخدرات في أوساط الطلبة في الثانويات حيث ارتفعت النسبة من ٢٧٪ سنة 75 إلى ٣٥٪ سنة 1977، وتظهر التقارير الرسمية في سنة 79 أن هناك ارتفاعاً في أعمال العنف والاعتداء والتسرب المدرسي بين الطلبة في الثانويات. حيث إن متوسط نسبة اعتداءات الطلبة على المعلمين بلغت ٥٠٠ حالة في الشهر. وإن ثلاثة أرباع مليون حالة هروب من المدرسة قد سجلت في هذا الصدد. وإن حوالي ٢٥٪ إلى ٣٠٪ من الطلبة كانوا يتركون الدراسة الثانوية. وباختصار فقد أكد Johnson A. Steve (1984) في مناقشته للقيم والمعتقدات الأمريكية ما يلي:

"إن الطالب النموذجي في الجامعة يكون جل اهتمامه الحصول على عمل جيد، وأن ينتمي إلى جمعية ويلبس الملابس المناسبة ويقود السيارة الملائمة له أكثر من اهتمامه بمعنى الحياة والعدالة الاجتماعية وعمل الخير. وبيولوج الطلبة سن العشرين تجد أن كثيراً منهم ليس لديهم وعي بالتوجه أو الهدف في حياتهم. وبالتالي يرتدون إلى الكحوليات والمخدرات والجنس، وذلك إما لتخدير شعورهم أو لإغراق أنفسهم في

وعى بديل. وبالنسبة لكثير من هؤلاء الطلاب، فإن هذه المتع الكاذبة أفقدتهم قدرتهم، ومن ثم تردوا إلى الانحراف الجنسي الذي ينتهي بهم في النهاية إلى اليأس أو إلى بحث متواصل عن براءة أو طهارة مفقودة".

كل ذلك دفع بالمربين وعلماء النفس والاجتماع والمرشدين النفسيين في أمريكا أن يطالبوا بإعادة النظر في البرامج التربوية وبرامج التوجيه والإرشاد على الخصوص.

وكاستخلاص أخير، وبعد الانتهاء إلى أن النموذج الأمريكي والغربي ليس بالنموذج المناسب للمجتمع الإسلامي، فإنه يمكن إدراج السؤال التالي أو الأسئلة التالية: ما النظام الملائم للتوجيه والإرشاد بالنسبة للمجتمع الإسلامي؟ وما فلسفته؟ وما أخلاقياته؟

إننا نعتبر أن نظام التوجيه والإرشاد الأكثر ملاءمة للمجتمعات الإسلامية هو النظام الإسلامي والذي هو جزء من نظام الحسبة في الإسلام.

وقبل أي مناقشة للنظام الإسلامي للتوجيه والإرشاد ومحاولة تأطيره فإن من الأهمية بمكان أن نستفيد من نظام الحسبة والذي هو مفهوم إسلامي قديم وعلاقته بمفهوم التوجيه والإرشاد والذي هو مفهوم حديث. ذلك قبل أي عرض أو تقديم للخطوط العامة للتوجيه والإرشاد في الإسلام وطريقة تطبيقاتها في مجتمعاتنا العربية الإسلامية.